الإنســـــان: الحـــــب والحيـــــاة... الجســـــد

أ. د. يحيـــى الرخـــاوي – الطب النفسي – القاهـرة، مصـــر

yehiarakhawy@yahoo.com - yehia_rakhawy@hotmail.com

تمهيـــد: هل يمكن أن يجد أحد نفسه فى موقف يرغم أن يختار – فى عمق وجوده – بين الحب والحياة؟ هل يمكن أن يعلمنا الإبداع الأعمق معنى آخر لما نكف عن ترديده حول الحب والثقة والكره والقتل؟ هل يمكن أن يسعى الإنسان بعد طول رحلة تطوره إلى نوع آخر من العلاقات؟ نوع أعمق، وأخطر، وأجمل، وأصعب؟.

✦ **فى فقه العلاقات البشريـة، كيف يكون الاختيار بين الحب والحيـاة؟**

فيما سبق، أطلّت على إطلالات متفرقة، متباعدة من حيث المبدأ، لكنها اجتمعت عندى حول ضرورة المغامرة بفحص طبيعة وصعوبة العلاقات البشرية، فانفتح على ملف هذا الإشكال الذى كنت أزمع تأجيله.

تنقلت ما بين الخطاب السياسى (سعد هجرس: بناء الثقة، ومحمد هانى: الشخصية الغائبة) إلى خطاب الحب والتبات والنبات (بؤرة الرجولة فى دماغ الأزواج : أمينة خيرى)، إلى خطاب الفن (رواية العطر: تحدى هوليود الأكبر) فحضرنى هذا الهاجس حول هذه القضية.

بعض عنوان مقال سعد هجرس "بناء الثقة" كان إشارة إلى ما نحن أحوج ما نكون إليه الآن فى مسألة علاقة الحاكم بالمحكوم، قدم تعريفا للسياسة بدقة ورفاهة، برغم أن المفروض أنه بديهى، باعتبارها "علم وفن إدارة الصراع والمتناقضات بين الأطراف المختلفة فى المجتمع بصورة سلمية" بديلا عن "حلبة مصارعة الثيران وحديقة الحيوان المفتوحة"، كما قدم اقتراحات عملية لإجراءات ممكنة تتعلق بوقائع قائمة تحتاج قرارا واضحا، فتبنى الثقة. هذا طيب كله: بسيط، واضح، عملى، وممكن، ومفيد. لكن المسألة التى أثارها العنوان ابتعدت عن كل ذلك وأنا أتساءل عن العلاقة بين بناء الثقة بنا، بداخلنا، فيما بيننا، وبين المناخ السياسى الذى يتطلب ذلك وينبنى عليه بشكل أو بآخر.

نبهنا محمد هانى، فى عاموده فى نفس اليوم إلى افتقارنا إلى (وحاجتنا لـ) نوع الشخصية التى تكسب وتجعل الآخرين يكسبون، وهى الشخصية الغائبة عن مجتمعنا فى الحياة السياسية والاجتماعية على حد سواء، وأنه لكى تنمو هذه الشخصية لا بد من توفير "... مناخ يسمح لها بهذا، أهم ملامحه الحرية، والقضاء على الفساد والعدل الاجتماعى" ..إلخ، شكرت له رؤيته وتصنيفه. لكن التساؤل تزايد عندى حول العلاقة بين كل ذلك وبين ما نربى عليه أطفالنا، وما نمارس من خلاله علاقاتنا الحقيقية، والحميمة".؟

وجدت نفسى فى صفحة التبات والنبات الذى تحرره أمينة خيرى، وقد تزين بتعبير رائع هو "بؤرة الرجولة"، فقدرت من جانبى أنه ليس وراء هذا "الورم الرجولى الزائف" إلا اهتزاز ثقة الرجل بوجوده كيانا مرغوبا فيه، الأمر الذى يضعه – تطـوريا ووجوديا - فى وضع أدنى كثيرا من امرأة ممتلئة بنفسها، دون غرور، فخورة بطبيعتها دون نقص، قادرة على التلقى الذى هو نفسه عطاء يتكامل فى نفس الوقت.

وأخيرا جاءت الإشارة إلى رواية العطر ومشروع تحويلها إلى فيلم سينمائى بمغامرة فنية أتمنى لها النجاح، وإن كنت أشك فى قدرة السينما على توصيل الرسالة التى وصلت للناس من تلك الرواية الرائعة.

العطـــــر

من رواية "العطر: تأليف باتريك زوسكند 1997 (ترجمت إلى أكثر من 20 لغة)

هى رواية تتناول فى جوهرها الطبيعة البشرية فى سجن وحدتها، وحتم حركتها نحو كسرها، وفى نفس الوقت فى سعيها الفاشل المرعب نحو تواصل شاذ مستحيل لا يستبعد القتل سبيلا إليه، وهى تضع الحب نقيضا للحياة بالنسبة لمسيرة بطلها، عكس ما نعرف ويشاع، وقد غاص فى هذا التحدى كاتب الرواية حتى النخاع، وخرج منه بما يضيف إلينا ما ينبغى معرفته عن طبيعتنا البشرية الرائعة الغاضة، أعمق وأكثر اختراقا من إسهامات العلم.

المقتطـــف، ص 23

.... كان غرينوى شديد المقاومة كالبكتيريا المنيعة، وقنوعا كقرادة ضئيلة تقبع مستكينة مكتفية بقطرة الدم الوحيدة التى اقتنصتها قبل أعوام. كان جسمه قادراً على الاكتفاء بالحد الأدنى من الغذاء والملبس، أما روحه فلم تكن بحاجة لأى شئ. فالطفل غرينوى كان بغنى عن الشعور بالأمن والدفء والحنان والحب، أى عن كل هذه التسميات التى يزعم البعض أن الطفل بحاجة إليها. ولكن يبدو لنا أنه قد تعمد الاستغناء عنها منذ البداية، كى ينجو بحياته. إن الصرخة التى اطلقها عقب ولادته، من تحت طاولة السلخ والتى دعا بها نفسه الى الحياة وأمه إلى المقصلة، لم تكن صرخة غريزية بحثا عن الشفقة والحب .... اراد بها الوليد الجديد أن يحسم أمره ضد الحب ولصالح الحياة. وفى ظل الظروف المهيمنة لم يكن هذا ممكنا دون ذلك..... لقد كان شنيعاً منذ البداية، فاختياره الحياة كان نابعاً من إحساسه بالتحدى والكراهية فحسب.

إنه لأمر بدهى مفهوم أن غرينوى لم يمارس عملية الاختيار، كما يفعل البالغ الراشد الذى يستخدم إرادته؟ ، .... إنما كان اختياره نباتياً، أى كالحبة المرمية التى عليها أن تختار بنفسها، إما أن تنمو أو تموت، أو كحشرة القرادة القابعة على جذع شجرة، والتى ليس لدى الحياة ما تقدمه لها سوى النجاة المتكررة من كل شتاء، ..... ومثل غرنوى كمثل هذه القرادة الوحيدة، المتكورة على نفسها فوق شجرتها، صماء بكماء عمياء وهى تتشمم فحسب، تتشمم وعلى مدى السنين والمسافات ودم الحيوانات العابرة والمتجولة.... هذه القرادة العنيدة المتعفنة والمقرفة تصر على الحياة وتنتظر. تنتظر حتى تسوق لها الدم، صدفة عجيبة، فى صورة حيوان ما، الى تحت شجرتها تماما. حينئذ فقط كانت تتخلى القرادة عن تحفظها، فترمى بنفسها فوق اللحم الغريب لتتكالب عليه وهى تعض وتنهش... والطفل غرنوى كان مثل هذه القرادة، فقد عاش متكيسا على نفسه بانتظار الزمن الأفضل. لم يقدم للعالم من ذاته سوى غائطه، لا بسمة ولا صرخة ولا التماعة عين، ولا حتى رائحته...

القـــراءة

غرينوى، بطل الرواية، هو لفيط أُنقذ بمحض الصدفة من أن تقتله أمه فور ولادته، وأعدمت أمه بتهمة قتل أولادها غير الشرعيين الواحد تلو الآخر، ولد بلا رائحة تجذبه إلى البشر أو تجذب البشر إليه، (بالمعنى العيانى والمجازى معا). هذه الحقيقة تكتشفها المرضعة تلو الأخرى، ثم تبلغه فتبدأ رحلته المتحدية، غرينوى بعد أن لفظته أمه حتى قبل ولادته. الاختيار الغريب الذى تطرحه الرواية منذ البداية هو أنها تضع الحب ضد الحياة، كما ذكرنا فى البداية، التحدى الأكثر إبداعا هو أنها تظهر لنا كيف أن قرار الحياة يتم تحقيقه عن طريق الكره بإرادة خفية أقرب إلى إرادة الحياة، نهاية الرواية تؤكد هذا التوجه أيضا.

الرواية تدعونا إلى أن نفكر كيف نتجاوز المألوف فى فهم العلاقات البشرية. إن تصويرنا للتربية المثالية، والعلاقات الجميلة، والحب الرائق، والسياسة الناجحة، بشكل سلسل أُصِل إنما يصلح لمستوى معين من التواصل التكيفى بين البشر، أو لتنظيم الأسرة وترتيب المجتمع، أو لتحديد الحقوق والواجبات، أما حقيقة العلاقات البشرية فلها عمق آخر لا مفر من مواجهته بإبداع منشئ، ثم إبداع ناقد، فاختبار فتعديل فتطوير لا ينتهى.

إن وضع غرينوى فى هذه الرواية لا يمثل تنويعا مقبولا من الوجود البشرى. إنه الجانب الأعمق الذى يتجادل مع الشائع الذى نعرفه، ونروجه، وبدون هذا الجدل لا يمكن أن نعرف الإنسان على حقيقته. إن الرواية تقدم الطبيعة البشرية الأعمق فى صورتها الشرسة المنفصلة التى تجعل الحياة تتواصل بالقتل والكراهية، بقدر ما تظهر الحب وكأنه هو الخطر الحقيقى على الحياة إذا كان مسطحا أو ملتهما أو خاملا أو لاغيا.

من منطلق آخر، فإن غرينوى فى العطر – من أول الرواية حتى آخرها- بدا نيزكا منفصلا عن الناس والكون معا، فتجاوز الناس إلى التأله الفاشل، لكنه لم يتجاوزهم فقط بالاستغناء عنهم، بل تجاوزهم أيضا بأن يستعمل بعضهم، ويتحدى جمعهم، ثم يقتل من تيسر منهم ممن يظن أنهم يحملون "رائحة" الحياة الأصل، كما يريدها ويتصورها ليؤلف من تشكيل عطورهم عطره الخاص الفريد ليتأله به. ومع أنه تنازل بذلك عن بشريته التى لا تتحقق إلا بالتواصل مع بشر آخر، ومع أنه قد حقق ألوهيته الزائفة عن طريق قتل العذارى الواحدة تلو الأخرى، فإنه حين نجح فى ذلك وفاح منه عطره النقى الساحر المتفرد الذى ليس كمثله عطر، جاءت نهايته عدما فى بطون أكلة لحوم البشر الذين حين فعلوها ".. كانوا فخورين إلى أقصى حد، فلأول مرة فى حياتهم فعلوا شيئا عن حب".

ماذا يقول العلم موازيا ؟

لا يوجد شىء فى العلم الأحدث يزعم أن كل ما يحتاجه الطفل ليحصل على الثقة ويواصل المسيرة: هو الرعاية الحانية والحماية التسكينية، ندع فرويد جانبا فقد صاغ الصعوبة بطريقته الخاصة (أوديب والخصاء، والتنافس المحارمى...إلخ) التى لم تعد كافية.

إريك إريكسون هو الذى أضاف فى كتابه الرائع "الطفولة والمجتمع" ما يفيد أن الإنسان يولد من جديد فى كل دورة نمو من الولادة حتى الوفاة (ثمان عصور – ولادات- لكل منا على الأقل)، وأنه فى كل ولادة جديدة يجد الواحد منا نفسه بين منطلقين يبدوان على طرفى نقيض. يكفينا هنا أن نتوقف عند المرحلة الأولى جدا عقب الولادة مباشرة ، وهى مرحلة لا تختفى أبدا مهما لحقتها مراحل أنضج فأنضج (مثل سائر المراحل). هى مرحلة تسمى "**الثقة فى مقابل اللاثقة** " Trust versus Mistrust.

إذا كان لنا أن نتحدث عن ضرورة توفير الثقة كأساس صلب للوجود البشرى، فلا بد أن نقبل أن الثقة الحقيقية الجدلية البناءة إنما تتولد من اللاثقة، ثم إنه من خلال هذا الجدل المبدئى، تتحرك عمليـة النمو إلى ما تعد به من مراحل تالية كلها فيها نفس الفكرة.

فى مدرسة أخرى هى مدرسة العلاقة بالموضوع Object relation theory (المدرسة التحليلية الإنجليزية) يمر الطفل بعد الولادة بقليل بموقف توجسى حذر"، وذلك لأنه حين يتعرف على العالم، وأن هناك يوجد كيان آخر غيره، يتوجس من ذلك الشر فيستعد له بالتوجس والشك والحذر، ومن ثم بالكر والفر، هو لا يستغنى عن هذا الآخر فهو لا يكون إنسانا إلا به، وفى نفس الوقت هو لا يأمن له ويخشى الاقتراب منه خوف الالتهام. من هنا نواجه حتمية الشك وحتمية اللاثقة، تلك الحتمية القادرة على أن تتفجر منها الثقة – دون إلغاء ضدها- من خلال جدل خلاق.

برغم صعوبة هذه اللغة إلا أننى أشعر أنها ضرورية إذا ما أردنا أن نكشف عن بعد أعمق من الطبيعة البشرية، بعد قد يجعلنا أقدر على فهم طبيعة ما هو علاقة نحاول إرساءها فيما بيننا بشكل أعمق وأبقى وأكثر إثراء ونبضا وجمالا. هذا **الموقف التوجسى المبدئى** الذى تبدأ به حياة البشر يبدأ بإعلان أن حضور الآخر فى وعى الإنسان (الطفل النامى أساسا) هوضرورة مواجهة بداية الطريق نحو تأنيسه (أن يكون إنسانا).

إن "الآخر" لا يكون آخرا بالنسبة لى إلا إذا كان كيانا مستقلا عنى، عن ذاتى أنا، أى كيانا "حقيقيا"، الأمر الذى نزعم أننا نمارسه حين نتكلم عن الحب وعن قبول الآخر وعن الثقة، فى حين أننا قد نكون فى خدعة أننا لا نعمل علاقة إلا باحتياجاتنا نحن، وإسقاطاتنا نحن. إن حضور هذا الآخر فى وعينا يبدأ – طبيعيا - باعتباره أنه خطر يهدد وجودنا، خطر بمعنى أنه قد يسحقنا فيلغى وجودنا لحسابه، أو قد نلتهمه نحن احتياجا أو خوفا، فنلغى وجوده، وفى نفس الوقت نحرم أنفسنا منه، ومن هنا يضطرد الجدل.

إن هذا النوع من العلاقة، وهى تسمى علاقة الكر والفر Fight Flight إنما يعلن أن وجود الآخر هو الخطر بعينه، لكنها مرحلة لا تدوم وإن كانت تكمن جاهزة للتنشيط، فهى تسمح لنا بأن نستدعيها كلما احتجنا إليها (أى كلما لزم الأمر للكر والفر)، وأحيانا تقتحم الوعى الظاهر– خاصة بعد كبت طويل - دون استئذان وبعنف، فى شكل مرضى.

فى هذه المرحلة يعتبر الحب تهديدا، ويعتبر أى اقتراب أكثر من المسافة التى تسمح بمواصلة "الكر والفر" الآخر غير مرغوب فيه، لعل فى هذا ما يفسر موقف غرينوى السالف الذكر : "الحياة ضد الحب " النص التالى يوضح ذلك تفصيلا.

النـــص: مـــن "ديـــوان ســـر اللعبـــة"

-1-

لا تقتربوا أكثرْ ..
إذ أنّـــي:
ألبس جلدى بالمقلوبْ،
حتى يُـدمى من لمسٍ 'الآخرْ'
فيخاف ويرتدْ
إذ يصبغُ كـفنـيْـه نزفٌ حىْ
وأعيش أنا ألمى،
أدفع ثمنَ الوحدة.

-2-

.....
أهرب منكمْ،
فى رأسى ألفىْ عينٍ ترقبكمْ،
تبعدكُم فى إصرارْ.
أمضى وحدى أتلفتْ.

-3-

... لكن حياتى دون الآخر وهم:

صفر داخل صفر دائر
....
لكن الآخر يحمل خطرَ الحبْ
إذ يحمل معه ذل الضعفْ
.....
يتلمظ بالداخل غولُ الأخذْ
فأنا جوعان منذ كنتْ
بل إنى لم أوجد بعدْ
من فرطِ الجوع التهمَ الطفلُ الطفلْ
فإذا أطلقت سعارى بعد فوات الوقتْ،
ملكنى الخوف عليكمْ.
اذ قد ألتهمُ الواحَ منكمْ تلو الآخرْ،
دون شبعْ.

-4-

يا من تغرينى بحنانٍ صادقْ ، فلتحذرْ،
فبقدر شعورى بحنانك:
سوف يكون دفاعى عن حقى فى الغوص الى جوف الكهفْ،
وبقدر شعورى بحنانك:
سوف يكون هجومى لأشوِّه كلَّ الحبِّ وكلَّ الصدقْ،
فلتحذرْ
إذ فى الداخلْ
وحشٌ سلبىٌّ متحفزْ
فى صورة طفل جوعانْ
وكفى إغراءًا
وحذار فقد أطمعُ يومًا فى حقى أن أحيا مثل الناسْ
فى حِقى فى الحبْ.
ألبسُ جلدى بالمقلوبْ
فلينزفُ إذ تقتربوا
ولتنزعجوا
لأواصلَ هربى فى سردابِ الظلمةْ.
نحو القوقعةِ المسحورةْ
.....
لكن باللّه عليكم: ماذا يغرينى فى جوف الكهف،
وصقيعُ الوحدة يعنى الموتْ؟
لكنَّ الموتَ الواحدْ: ... أمرٌ حتمىٌّ ومقدرْ،
أما فى بستانِ الحبْ،
فالخطر الأكبرْ:
أن تنسونى فى الظلْ،
ألا يغمرنى دفء الشمسْ
أو يأكل برعم روحى دود الخوفْ.
فتموت الوردةُ فى الكفن الأخضرْ،
لم تتفتح
و الشمسُ تعانقُ من حولى كل الأزهارْ،
هذا موتٌ أبشع .
لا..
لا تقتربوا أكثر،
جلدى بالمقلوبْ
والقوقعةُ المسحورةْ
تحمينى منكمْ.

هذا ما فعله غرينوى، تقريبا بالضبط، فقد لجأ فى الرواية إلى كهف الجبل (القوقعة المسحورة) يحتمى به من البشر، من روائح البشر، لكنه خرج من كهفه أكثر ضراوة وشراسة وبدائية وقتلا، وحين نجح أن ينفصل تماما برائحته الخاصة الألوهية، التهمه أكلة لحوم البشر فى مقبرة "الأبرياء" فى باريس ليعلن الكاتب المبدع بذلك فشل الإنفصال النيزكى حتى لو كان مفروضا على صاحبه منذ البداية، كما يعلن أيضا فشل تجاوز ما هو نيزك إلى ما هو إله، دون مرور بجدلية العلاقة مع بشر حقيقيين مهما كانت روائحهم.

كان غرينوى فى العطر يريد أن يخلق لنفسه عطره الخاص، لا ليستمتع به داخل الغار أو داخل القوقعة، ولكن ليفرض نفسه على الآخرين يشمون رائحته متفردا، وحين نجح فى ذلك حتى أسكرهم نشوة وانبهارا ، سحروا انجذابا، فالتهموه إعداما، وهم يعلنون أنها المرة الأولى التى يعملون فيها شيئا عن حب.

إن اقتراب الآخر منا ونحن فى هذا الموقف التوجسى للكر والفر حتى الاختفاء، فتحسس الظهور، فالعودة الحذرة، فالاختفاء، يصاحبه تساؤل لحوح عما إذا كان هذا الآخر يرانا حقيقة وفعلا، أم أنه لا يرى إلا ما يريده منا، أم أنه يستعملنا فقط، وهو فى جميع الأحوال قد يلغينا بالعمى، أو يستعمل جزءا منا دوننا، أو يستعبدنا من فرط جوعنا بعد أن يتمادى فى تعجيزنا. إن تردد المحبين أصحاب الوعى اليقظ فى تقبل الحب السهل، ومواصلتهم التساؤل عن طبيعة العلاقة، وذهابهم وعودتهم بلا كلل، هو مظهر من مظاهر هذا الجدل الحى، دون ضمان بنهاية واثقة بدرجة كافية، لان ذلك هو موقف بلا نهاية، برغم حتميته، وألامه، وروعته، ووعوده. يتجلى كل ذلك أو أغلبه فى نص آخر بالعامية المصرية هذه المرة

قـراءة من " ديـوان أغـوار النفـس "

النـص:

(1)

القط يشمشم اللبن،
ويختبئ تحت الكرسى الـ"مش باين"
والعين الخايفَة اللى بْتِلْمَعْ فى الظُّلْمَهْ
عمّالَة تِختبر الناسْ:
بتقرّب من بحْر حَنَانْهُمْ،
زى القُطّ ما بيشمشمْ لَبَن الطفل بشاربُهْ.
عمّالَهْ بْتِسْأل:
عـايزينّى؟
طبْ ليه؟
عايزينّى ليه؟
إشمعنى الْوقْتِى؟
يصحيحْ عَايزنّى؟
بقى حَدْ شايفْنِى يَا نَاسْ؟
مِشْ لازم الواحِدْ منكم يعرفْ
هوّه عَايزْ مِينْ؟
بقى حد شايفْنِى أنا؟
أنا مينْ؟
أنا أطلع إيه؟
وازاىْ؟
طبْ ليه؟
اللّه يسامِحْكُمْ. مِشْ قصدِى.

(2)

أنا قاعِدْه راضيه بْخوفِى المِشْ رَاضِى.
أنا قاعده لامّه أغْرَاضِى.
أنا قاعده راصِدْه حركاتكُمْ،
قاعده اتْصنّتْ، على همس المِشْ شايفينّى ،
وأسَهّيهم، واتمسّح فِ كْعوب رجليهم.
أخطف همسةْ "أيْوَهْ"،
أو لَمِسَةْ "يمْكِنْ".
واجرى اتدفّى بـ "يَعْنِى"،
وانسى الْ "مِشْ مُمْكِن".

(3)

وأبصلْكمْ مِن تَحْتِ لْتَحْت،
واستِخونْكُمْ،
واتعرّى يِمْكِنَ اطَفْشْكُمْ،
وأبويَا النِّمِر يفكركمْ:
زى ما هوّه بياكل التعلب،
أنا باكل الفارْ.
لكنى لمّا بقيت إنسانه:

باكـلْ نفسي
وباحلّى بميّهْ نارْ،

(4)

ما تخافُوا بقى منّى وتتفضّوا
مِنتـظْرين إيه؟
.. لسّه الحدوتهْ ما خـلـصِتْـشِى؟
"ما لْهاش آخر"؟
طب قولّى كان فين أولها ؟...،
أو مين كان أصْلُه اللى قايلها؟)
بتلوّح بالحضن الدافى ؟
طبْ هِه ...!!
راح اسيبْ.

(6)

أنا جِسمى اتبعزقْ،
زىّ فطيرة مشلتتة لسّهْ ما دخلتشِى الفرنْ.
.....
يا حلاوةِ الحنّيهْ الهاديهْ النادية:
لا بْتسألْ مينْ؟ ولاَ ليهْ!!
وانا برضه نسيت أنا فينْ،
... وانا إيهْ؟
ولا عادْ لى إيدْ ولا رجلْ
ولا عارفه اتــلم.

(7)

ولإمتى كده؟؟
لأ مش قادِره.
أصْل انَا خايفه
أنا خايفه موتْ،
إخص عـلـىّ،
خايفهْ من إيه؟
من لمس أيدين أيها واحدْ.
أهى كِدا باظتْ،
باظت منّى،
رجعتْ "لكنْ":
رجعت "لأه"،
رجعت "مِش ممكن"، "لأ لسّه"
خايفه تِفْعصْنِى يا روح قلبى،
وتقولّـى باحبْ !!
ما هو كل الناس بيقولو زيك، قال إيه:"بنحبْ"
ولا واحد فيهم يقدر يسمع دقة قلب
إيش عرّفكمْ باللّى ما كانشِى،
باللّى ما لُوهشِى،
باللّى ما بانْـشِى.
عمّاله باحْسِبْ هَـمْس حَفِيفكُمْ.
باحْسِبْ خوْفكُمْ.
خوفِى مِنْكُمْ.
مخّى مصْهلل، وبيْتِفرّج،
ولا فيش فايدة.

(8)

نطّ منّى، غصب عنّى،
بص برّقْ؛ بيعايرنِى
"...سِبْتِني ليه ..؟؟؟؟!!! "
هوّا مين ؟
هوّا إيه ؟
شِككنى فى الكُلْ كليلهْ.
رجّعنى للوحدة النيلة!
لمّيْتنِى، ويارِيتْنِى لقيتْنى.

(9)

فينك يا مّه؟

نفسى اتكوّم جوّاكى تانى،
بطنك يامّه أآمَنْ واشرف من حركاتْـهم.
- وانْ ما قدرتيشْ؟
="إلموت أهون".
- وان ما حصلشِى؟
= تبقى الفُرجة، وْشَكّ الغُـرْبَة، وشُـوكِ الوحْدهْ.
- طب ليه !!!؟؟؟ طب ليه ؟؟!!! ؟
= " أهو دا اللى حصلْ".

(9)

راجعه ْ "كما كُـنْـتْ"
قاعْده استنى،
وانا باتمنى،
....
اخطـفْ حتهْ نظرهْ،
أو فتفُوتِهْ حُـبْ
لا حافتـش فيها،
ولا حاسأل مين راميها
واجرى آكلها لوحدى
تحت الكرسى الـ"مِش باين".
ما هو كله ضلام فى ضلام
والكدْب ما لوش عنوانْ

وبعـد

هذه التعرية الصارخة، لا ينبغى أن تشككنا فى قدرة الإنسان على الحب، هى فقط تنبهنا لصعوبة المسيرة، وضرورة احترام أصل الحكاية.

ثم ها نحن نرى كيف تتكامل النصوص بكل لغة ومن كل مصدر، لتعلن نفس الموقف، ربما تحفز إلى حركة أصوب، حتى ولو كانت فى اتجاه أصعب، لكنها المعرفة الأعمق.

إن التركيز على الجانب الظاهر لما نريد، دون التعمق فيما وراءه من ضرورة لاحتواء أصل الجدل الحيوى والتطور الخلاق، لا يحقق نموا بشريا، ولا واقعا متطورا، ولا إنسانا جميلا، لكن علينا أن نتقبله، ونفرح به، دون أن نركن إليه، أو نتوقف عنده، فهو لازم حتما لتنظيم جمعى فوقى ضرورى بشكل أو بآخر.

✦ الإنســـان الجســد

أما قبل: برغم أنك تقرأ هذا الكلام بعينيك، وتقلب الصفحة بيديك، كما تغلق التليفزيون بأصابعك على الريموت أو مباشرة، ثم تذهب إلى الحمام سائرا على قدميك، لتعود عليهما، ثم تسلقنى و تنطى قبل أن تنام، أو تلقى بجسدك على السرير فينقلب منك أو لا ينقلب، حتى تستغرق فى النوم، برغم كل ذلك فأنت – مثلى غالبا – ليس عندك خبر أن لك جسدا، بما هو كما هو، مع أنك أنت شخصيا – مثلى أيضا – لست إلا جسدك. تصور؟!

لا يمكن أن تتعرف على جسدك لحق من خلال رأى عقلك فيه، أو تصور عقلك له. مع أن الجسد له أولوية فى الوجود، وكذلك عبر تاريخ التطور. كانت الكائنات الأولية تفكر بجسدها، وتحفظ بقاءها بجسدها، وتحافظ على نوعها بجسدها، وتمارس مشاعرها بجسدها، كل ذلك قبل أن يتخلق لها دماغ (مخ) .

جسدك ليس فى حاجة إلى توصية من عقلك المحترم حتى تعترف به.

كيف السبيل لنتعرف معا على ما نسيناه حتى ألغيناه؟

بالنسبة لما حاولنا معا هنا والآن، للأسف ليس هناك سبيل إليك، إلينا، إلا

من خلال عقلك الذى تقرأ به هذا الكلام. أليست القراءة هى وظيفة عقلية حتى لو كانت تتم من خلال عضو إحساس رائع، هو "العين" التى لم نعد نستعملها إلا معتبرا آلما يتجاوزها ؟ ومع ذلك دعنا نحاول:

هل تعـرف أن لـك جســـدا (ولا مؤاخـــذة) ؟

- **أولا: مـــاذا فعلنـــا بأجسادنـــا حتـــى تاريخـــه؟**

ماذا طرأ على مفهوم الجسد عند الإنسان المعاصر؟ وبالتالى ماذا طرأ على ما هو جسد؟ عند أغلبنا ؟. لقد انتهى الأمر بنا وبأجسادنا إلى اغتراب منذر. (برجاء عدم التعميم).

لا نريد أن نطيل فى التنظير المبدئى قبل أن نعرض للنصوص الملهمة، نقرأها سويا قراءة نقدية كما اعتدنا، لكن الأمر يحتاج إلى النظر فيما آل إليه الحال كالتالى:

1. تم **إهمال الجسد**، أو تهميشة، لحساب ما يسمى العقل، فنحن نعرف أجسادنا من خلال ما شاع عنها فى كلامنا وأحكامنا، أكثر مما نعرفها من خلال ما يصلنا منها مباشرة، اللهم إلا فى حالات المرض (أو توهم المرض الجسدى:المراق Hypochondriasis)، وبعض حالات الجنون، وأحيانا الإبداع حتى لا نظلم الجميع.

2. تم **احتقار الجسد**، أو ازدرائه، لحساب ما يسمى الروح. ومع أن الروح من أمر ربى، فالأفضل ألا نفتى فيها، فإنه ما أسهل على أى واحد لا يعرف جوهر دينه أن يضعها استقطابا على أقصى الناحية الأخرى من الجسد، يحدث هذا فى التدين المنغلق المنشق، كما يحدث حتى فى بعض أنواع العلاجات تحت مسمى "الروحانية"، فيصل هذا الاستقطاب بين الروح والجسد، وكأنهما نقيضان، إلى الشخص العادى ليسود الحديث عن طهارة الروح، وعشق الروح الذى ليس له آخر، "لكن عشق الجسد فانى، عشق الجسد فانى!!"

3. يصل الأمر إلى أن نعامل **الجسد كمجرد أداة**، أو وسيلة لغيره، ومن ذلك:

- أن نقصر دوره على أن يكون وعاء ثم مطبخا لطحن الطعام وهضمه وأيضه، (تمثيله الغذائى) ليمدنا بالطاقة، وأحيانا نبنى من خلال ذلك بعض وحدات من الخلايا البديلة نعوض بها ما تلف منا.
- كما قد نستعمل الجسد أداة للمتعة بما يحقق لنا ما تيسر من لذة أو يطفئ ما أثير من شبق.
- كذلك قد يستخدم **الجسد معرضا للممتلكات** حين نضع عليه ما نملك من إكسسوارات لزوم رموز الطبقة للإعلان على أننا نمتلك من المال ما يمكن الاستغناء عنه ووضعه على رف الجسد للإعلان والتنويه.
- ثم إنه كثيرا ما يستعمل **الجسد كلوحة** تتلقى عبث الوشم المؤقت، أو الدائم، كلافتة تعلن عن هوية صاحبه أو رغباته أو احتياجاته أو حتى موقفه السياسى أو المذهبى أو الدينى.

وأيضا: راح أهل السوق والشطارة يستغلون أجسادنا كمجال ومرتع لتسويق بضائعهم، سواء كان جسدنا يحتاج هذه البضائع أم لا.

- وقد يبدأ استعمال الجسد لما ليس له منذ الطفولة، كأداة للتنافس المسعور، وذلك مثلما يحدث حين يعد الأهل بناتهن ليصبحن أبطالا فى ألعاب القوى، فتظل الطفلة فالفتاة فالبطلة تقوم بتدريباتها سنين عددا لتكسر الرقم القياسى، أو تفوز على منافستها بواحد على ستة عشر من الثانية (أى والله!!)، والأكثر قسوة أننا نفرح بذلك ونصفق لها وهى طائرة فى الهواء، أو سابحة فوق الحاجز !!!

4. مع زيادة الاهتمام بالصحة الجسمية والوقاية من الأمراض والتلوث والمخاطر ينقلب تعاملنا مع **الجسد إلى اعتباره سلعة** لها ظروف تأمين خاصة، حتى نكاد نوصى أن نمسكها من الناحية التى بها أسهم إلى أعلى لأنها تحتوى محتويات قابلة للكسر، ونظل نتبارى فى إطالة عمرها الافتراضى، بغض النظر عما تعنيه أو تحتويه هذه السلعة، وبغض النظر عما ستقوم به فى السنوات التى طالت بفضل حرصنا على سلامتها.

5. فى العلم، والطب، والتطبيب ، يتم اختزال الجسد – عادة – إلى وحداته الأولية، باعتباره **خلايا ومشتبكات**، ترسل رسائلها إلى أعضاء وعضلات، ليصدر عنها سلوك وحركات ....إلخ

وبعـــد

إن الجسد هو كيان متكامل بكل وحداته، بما فى ذلك الدماغ/المخ، وفى نفس الوقت فإن له تجلياته التى لها استقلالها من حيث المبدأ، لكنها تصب فى حركية التكامل مع تجليات مكونات الوجود الأخرى.

ليس من حق العقل أن يصيغ الجسد رمزا مجردا. للجسد حضوره كوعى قائم بذاته.

نحن نحتاج إلى منهج حياة آخر يسمح لجسدنا بالحضور من جديدا وعيا فاعلا متكاملا يعرف وينبض ويضيف. نحن لا ندعوك بسذاجة عقلية أن تعترف أن لك جسدا، أو أن تعى ذلك بقدر من الاحترام والاهتمام، ثم إننا لا نقصد التركيز على الجسد، أو الانقلاب إليه، ثم إن الزعم بأن الجسد هو أحد مجالات "تجليات الوعى" لا يعدو أن يكون شكلا آخر من وضع الجسد فى موضع ثانوى.

نعم. إن استعادة دور الجسد لا تتم ونحن جلوس على المكاتب نمارس تجريده بالألفاظ، ولا هى تتحقق بتدريبات الوعى به، ولا بدراسة وحداته كل على حدة. لا مفر من إعطائه حق الحضور ممارسا مشاركا بأعلى تجليات الحوار والإبداع. الرياضة البدنية – برغم أهميتها- ليست هى المقصودة بذلك، خذ مثلا: رياضة "واحد اتنين"،" واحد اتنين"،هذه رياضة ليس لها علاقة بالجسد بالمعنى الذى نقدمه، أو خذ الرياضة المسماة كمال الأجسام أو رفع الأثقال كلاهما أبعد ما تكونان عن الجسد الوعى. (أشرنا فيما سبق إلى ألعاب القوى..)

إن الجسد يحضر متناغما أكثر من خلال الحب والعمل الجسدى/ اليدوى الفاعل، يتم فى مساحة مكانية يتحرر فيها الجسد من الاحتقان والاختناق. ثم إنه بالتواصل الحسى والجنسى على مستوياته المختلفة، يمكن أن تجرى الأجساد حوارا أعمق بعيدا عن وصاية عقل القابع أعلى الهامة، حوارا يتجاوز اللذة وهو يشتملها، وهو لا يتوقف عندها ولا يلغيها.

وأخيرا فإنه بالإيمان الجسدى الكلى، مرورا بالطبيعة إلى الكون المفتوح النهاية، يمكن أن ينطلق الجسد الوعى الممتد إلى ما بعده ليتأكد به. (أنظر "خامسا": استلهام الوعى الدينى).

وحتى اختفاء الجسد الفرد بالموت، لاينهى دور هذا الجسد، فثم فرض يقول: إن الجسد وهو يرحل، وقبل أن يرحل، يترك بصمته الحيوية فى أجساد أخرين، كما قد يتركها فى أنغام الكون، الأمر الذى قد يكون مدخلا لتفسير كثير من الظواهر الفيزيقية، وربما الميتافيزيقية "الأرواح".

إسهامات العلم - فى حدوده الحالية - لاستعادة دور الجسد والتعرف على حقيقة ما آل إليه ليست قليلة، خصوصا الاجتهادات الأحدث لإسهامات العلم المعرفى، والعلم المعرفى العصبى، وبعض الهندسة الوراثية، وعلم النفس الثقافى، والطب النفسى التطورى، وكلها إسهامـات

رائعة لكنها متواضعة لاتكفى.

أما إسهامات الآداب والفنون فهى شديدة العمق رائعة الدلالة، وهاكم بعض ذلك:

- **ثانيا: عـودة إلـى أصـداء محفـــوظ**

النـص: الفقرة 112: (أجلتُ العنوان قصدا)

" فوق السطح وقفا يتناجيان، هو أطول قامة وهى أجمل وجها، أما أنا فألعب بالطوق مرة، ثم أراقبهما ولا أفهم. ويغيبان فى حجرة السطح قليلا ثم يرجعان فأعود إلى استراق النظر بمزيد من الحيرة. وجاء الإدراك متعثرا من خلال الأعوام الحامية".

القـــراءة

هل لاحظت **وظيفة النظر** وهو يتبادل ويتكامل مع الحركة، وطفلنا محفوظ يتحسس الطريق إلى التعرف على الطبيعة البشرية بشكل مباشر؟ هل لاحظت التنقل ما بين اللعب بالطوق واستراق النظر إلى الحبيبين حتى التقط طفلنا بتلقائية عفوية تلك الفروق المميزة لهما وفيما بينهما، دون أن يسجنه الفهم (ثم أراقبهما ولا أفهم)؟ هل يلهمك ذلك أن تراجع كيف يتعلم الواحد منا الجنس؟ هل نتعلمه بالدروس!!؟ أم بالشرح النظرى؟، أم بالنمو التلقائى؟ أم بالتقليد؟ أم بالممارسة؟ أم بالكشف؟ أم بكل هذا وغيره مما لا نعرف؟.

يعرض محفوظ هنا منظرا عاديا يتعلم الطفل منه معنى الغرام، حالة كونه طفلا يلعب بالطوق. إذا طلبت منك الآن أن تسمى هذه الفقرة بعد أن أخفيتُ لسمها عنك قصدا، فـ ـبـ ـم تسميها بالله عليك؟ ثم قبل محاولة تسميتها: هل لاحظت نهايتها التى تربط بين هذه الخبرة الحسية المعلوماتية المباشرة، وبين الإدراك التالى الذى جاء متعثرا مع الأعوام الحامية (؟؟).

العنوان الذى عنون به محفوظ هذه الفقرة لا بد أن يدهشك ويعلّمك كما أدهشنى ونبهنى كان العنوان يقول: " ذكاء الجسد". تصور؟ وهل يحتاج الأمر إلى مزيد من تعليق؟

يكفى هذا لننتقل إلى فقرة أصداء أخرى عنوانها يبدو لأول وهلة أبعد ما يكون عن "ذكاء الجسد". حين تقرأ عنوان فقرة رقم 116 فى الأصداء بعنوان "سيدتى الحقيقة"، ماذا تتوقع قبل أن تقرأ متن الفقرة؟ ولأزيد الأمر عليك صعوبة وإلغازا، لتكتمل الفزورة، سوف أقول لك كيف انتهت هذه الفقرة وهى تقول: "نعـ ـم الرفيق الشغف والمنازل ". ثم خذ عندك البداية أيضا لعلها تسعفك (بينى وبينك أنا أصعبها عليك أكثر)، تقول البداية: "عرفت منازل الحقيقة فى عصر الفطرة".

إذن فنحن عندنا حقيقة، لها منازل، يمكن التعرف عليها فى عصر الفطرة، لننتهى أنه "نعم الرفيق الشغف والمنازل". تصور ما شئت، ويا حبذا لو توقفت عن إكمال ما تقرأ، (عـدْ إلينا "بعد الفاصل" !!) لنقرأ معا ما بين تلك البداية وهذ النهاية تحت ذلك العنوان: هكذا:

الفقرة 116 سيدتى الحقيقة

"عرفت منازل الحقيقة فى عصر الفطرة. عندما تقرفص المرأة أمام طشت الغسيل أقرفص قبالتها فتلعب يدى فى الماء وتسترق عيناى النظر. عندما ألهو فوق السطح فى الليالى البدرية أمد يدى فى الفضاء لأقبض على وجه القمر. عندما نزور القبر فى المواسم أركز عينى على جداره لأرى.

نعم الرفيق الشغف والمنازل."

هل كنت تتصور أن يبدأ التعرف على الحقيقة فى عصر الفطرة، من قرفصة طفل يسترق النظر إلى حقيقة الجسد والفخذان منفرجان حول طشت الغسيل، ثم ينتقل إلى استراق الخيال وهو يمد يده يقبض على وجه القمر، ثم ها هو يهم باقتحام جدار القبر أثناء زيارات المواسم وهو يكاد يخترقه بنظراته ليتعرف على حقيقـة ماوراءه، هل واكبتنـى ومحفوظ يأرجحنا لنعرف الحقيقة ونحن نترجح بين بؤرة جسد امرأة، وحضور وجه القمر، ومحاولة استكشاف معنى آخر للموت، لتنتهى القصيدة بهذه الحركة النابضة: "نِعم الرفيق الشغف والمنازل"

تقدم لنا هذه الفقرة ذكاءً آخر لا يقتصر على ذكاء الجسد، وإنما تتكامل به وسائل المعرفة بالانتقال النشط بين العارى الفج، والخيال الحى، على أرض واقع الوعى اليقظ، المرتبط برفيق لم يظهر، ومنازل لم تتحدد. هل هذه المنازل هى متدرج الوعى النامى، أم متعدد الخبرات اللاحقة، ولكن كيف يكون الرفيق هو الشغف برقته وجماله، ولماذا عطفَه محفوظ على المنازل؟ المسألة لا تحتاج إلى الرجوع إلى المعاجم، وإنما تحتاج إلى إعادة قراءة الفقرة وتركيزك على الحركة، والرؤية، والإدراك، و"الجسد الوعى"، لتتأكد بوعى جسدك بدورك أنه: "نعم الرفيق الشغف والمنازل".

- **ثالثـا: نـص مـن خالـدة سعيـد**

فى نقد أنسى الحاج : "حركية الإبداع" دار العودة، بيروت 1979

ص 65

" ... تراجع أنسى الحاج ، انسحب من العالم الخارجى المضيء اللامع الثابت المستقر، إلى عتمات الجسد حيث التشوش الفظيع فجأة لكل نظام، حيث النظام المؤسس للانهيار. ضمن حدود الجلد أدرك وحدته، وأنه، حتى حلفه مع جسده باطل ومتداع، وأن جسده مفكك وخائن لبعضه البعض الآخر.

فى عالمه الداخلى ذاك، بدا شعوره المتضخم بجسده، ففى قصيدة "فقاعة الأصل" تبدو "شارلوت" ذات شخصية مستقلة لها سلوكها، واتجاه حياتها، تبدو عدوا للشاعر، حتى قد يلتبس الأمر على القارئ المتسرع ويحسبها امرأة. شارلوت، هذه الشخصية الغريبة، هى ما تنسله الإصبع فى منتهاها قبل بداية الظفر". شارلوت هذه "تخطت القافلة كشافة تتجسس". إذن فأجزاء جسده تستعد للسفر، للتخلى عنه، وها هى تنذره "إن العقد سينفرط، إننا متخلون عنك، إنك مبدد شر تبدد"، إذن جسده الذى حسبه حليفه الوحيد سينفرط و "ينسل نسلة نسلة حتى يبدو لحمه العارى، ثم ينهار لحمه العارى ويسفر عن عظامه، ثم تلقى عظامه فى الليل"، وما تلك النسلة إلا "علامة"....

القـــراءة

قبل أن أدعوك لقراءة هذا النقد معنا، أرجو أن تنظر إلى أحد أصابع يديك، وأن تركز على تلك المساحة التى ركز عليها شعر أنسى الحاج، أو هو شخصيا، وهو يتعرف عليها،المساحة التى بين نهاية الإصبع وبداية الظفر، هل ترى شيئا ؟ هل ترى نسلة صغيرة من لحم عار؟ الإجابة هى بالنفى على الأرجح (لقد رأيتها أنا شخصيا الآن). أنس الحاج شاعر قصيدة النثر، حكايته مع الشعر والجنون والسرطان تحتاج إلى تفصيل آخر، لكن الذى يهمنا هنا فى نقد خالدة سعيد هو ما التقطته من رؤية الجسد يتحلل، ثم وهو يحضر بتحلله فى وعى الشاعر، ثم تتبدى استقلاليته فى ما أسمته الناقدة "عتمات الجسد" حيث التشوش الفظيع فجأة لكل نظام. هذا التناهى فى التركيز على تفسخ الجسد وتناثره، يكاد يقابل التناثر الفصامى الذى يفكك كل شىء عن كل شىء، والذى يصيب الفكر بقدر ما يصيب الوعى، هو التفسخ الذى يقابل هنا تحلل الجسد هكذا فى رؤية أنسى الحاج شعرا، وليس جنونا وانسحابا بعد. إن أنسى الحاج يعرف جنونه بوجه خاص هو يقرنه بالحرية. هو الذى يقول: إما الاختناق أوالجنون، بالجنون ينتصر المتمرد ويفسح المجال لصوته كى يسمع"، الجنون هو الوصمة التى يحملها من اختار أن يكون حرا، أن يتحرر من عبودية المفاهيم المعممة والسلوك المألوف والضياع بين الأرقام..." وأيضا كما تقول الناقدة عنه:

"فى الجنون لا قوالب، لا نسب للجمهور، اللعنة حرية العذاب الداخلى .. فى السقوط حرية الفوضى، حرية التوغل فى الجسد" فتلاحظ أن التوغـل فى الجسد زاده تمزقا ولم يجمعه وعياً.

ما العلاقة بين هذا التفسخ الذى حضر فى الوعى/الجسد بهذه الصورة الشعرية فالنقد، وبين اغترابنا نحن العاديون عن أجسادنا؟ إن ما يصفه أنسى الحاج وتلتقطه خالد سعيد بهذه الصورة المرعبة، إنما يذكرنا كيف أنا نعيش فى سجن صنعناه من أجسادنا المخمدة المغتربة، فلا نحن تحررنا من سجنها، ولا هى تحررت فأعفتنا أوهامنا المعقلنة، فيزيد الضغط والاحتقان. الجسد المغترب المهمش المستعمل من الظاهر يصبح سجنا جاثما ليس على الحركة والنمو فحسب، بل على نفسه أيضا. يمكن للإبداع أن يحتوى هذا التناثر كما ظهر لنا فى شعر أنسى الحاج، الذى استطاع أن يرصد تحلل جسده بفضل شاعريته حتى ضبط تلك النسلة بين الإصبع والظفر، وأسماها "شارلوت" وحادثها واستنطقها وغاص حتى النخاع فى تفاصيلها. نتعلم من هذا الشعر كيف تتناثر أسوار الجسد السجن فى ثورة التحرر سواء أدت إلى الشعر أو الجنون.

لم يبق أمامنا إلا أن نستشهد بقصيدة موازية لم تنشر تصف مرحلة باكرة نسبيا قبل هذا التفسخ الذى وصل إلى درجة التناثر الجسدى كما لاحظنا، مرحلة يستقل فيها الجسد كله أو بعضه وتختلط معالمه، إعلانا عن حركية ثورة مهددة بالإجهاض فى الجنون.

- **رابعـــا: قصيـــدة الخطـــوات**

-1-

النجدةْ!
إياكم والنجدةْ!!
....
السوطُ، السوطُ، السرداب.
المسمارُ، الثقبُ الباب .
الوجهُ قفاى.

-2-

تاريخى ليس بواقعْ؛
وملامحِ وجهي تشويهٌ فاقعْ
والقلبُ المهزوم يئِنُّ بحشرجةٍ ثْكلى،
وحروف الكلمات بتجويف الفمْ،
تَأبَى أن تَنْعى اللَّفْظَ الميِّت

-3-

تقفز منى الخطوات؛
ألاحِقُهَا.
ألحقُـهَا،
لا ألحقُـها.
الأرجلُ مقطوعهْ،
والسيقان بلا أعينْ،
آثار الأقدام تشير إلى طرقٍ شتَّى،
فأسير بكل منها شوطاً.

-4-

والوجْهُ الأملسُ،
والذَّنَبُ المقطوعْ.
وحنينُ الوعى المجهض،
يلفظُ أنفاسَـهْ.
والألفاظُ الأطفالْ،
تبحثُ عن مأوَى.
...لا جدوَى.
غُصَّتْ صفحاتُ شروح المُعْجَمْ.

عندى رغبة ألا أقرأ هذا النص ناقدا لأدعه يكمل الموضوع بما هو بلا زيادة أو وصاية. كما أدعو القارئ إلى أن يرى هو بنفسه ما يتراءى له، لعلنا نأتنس.

- **خامســـا: استلهـــام مـــن نص دينـــى**

لتفقنا - دون إعلان محدد- أن النصوص الصوفية والنبوية والإلهية ليست نصوصا للنقد، ولا حتى للتفسير، إنها مصدر إلهام متجدد، لذلك وجب التنويه فى كل مرة دون كلل.

جاء فى معنى الحديث الشريف وصفا لصهيب، بعد أن أنكره الحاضرون، ووصفوه بأنه: "إذا حضر لم يستَـشر، وإن غاب لم يسأل عنه"، إلخ، جاء النص النبوى الشريف يرد لصهيب حقه بما معناه:

النـــص:

"... صهيبٌ مؤمن نسى، إذا ذكّر ذكر،
خلط الإيمان بلحمه ودمه،
ليس للنار فيه نصيب"

من يقرأ هذا الوصف الشريف قد ينتبه إلى آخره دون أوله، وهو قد ينتبه أكثر وهو فرح كيف أن صهيب ليس للنار فيه نصيب ، لكننى انتبهت أكثر إلى أنه "نسى"، صهيب مؤمن نسى، وأنه "إذا ذكر ذكر"، ثم إنه "خلط الإيمان بلحمه ودمه".

الذاكرة التى تـُدرس وتوصف وكأنها كتاب به معلومات مرصودة، وغلاف محكم، ومكان على أحد أرفف المخ، ليست هى الذاكرة الحقيقية الأشمل التى تمثلها ذاكرة الجسد، ذاكرة الجسد كله شاملا المخ تكون فيها كل خلية بلا استثناء ممثلة لسائر الوجود، هذه الذاكرة تصبح أكثر فاعلية حين لا تعود ذاكرة، إذْ تصبح جزءاً لا يتجزأ من وعيٍ مشتمل. صهيب هذا نسى نسياناً بمعنى التمثل، وليس بمعنى التخزين المغلق، أو التآكل أو الكبت، ومن هنا نفهم – استلهاما- كيف أن صهيبا حين نسى ازداد معرفة، بمعنى أن هذا النسيان ليس محوا أصلا، إنه استيعاب تام للمعرفة المدخلة بحيث تصبح غير قابلة للاستعادة كما هى، لكنها قادرة أن تتخلق منها الخبرة الموازية عند الطلاب، هذا هو المعنى الذىاستلهمته من أن صهيب "إذا ذُكر ذَكر". هذا التذكر ليس إحضار معلومة من مخزن، لكنه إحياء فطرة كامنة تم تدعيم تشكيلها حتى تخلقَتْ بالإيمان المتجدد، من هنا لا يمكن أن يكون للنار فيها نصيب، فالنار لا تلتهم إلا النيازك الساقطة بعيدا عن هارمونية الكون والجسد. المسألة إذن ليست مسألة اعتقاد فكرى محدد، الأمر الذى قد يلزم لضمان جدية المسار، لكن المسألة الإيمانية الأعمق التى تتأكد من هذا النص هى النجاح فى "خلط الإيمان باللحم والدم" حتى يلتقى جمال الفطرة بجمال الكون فى رحاب الحق سبحانه وتعالى، هذاهو ما يمثل لقاء الوعى الجسدى الفردى بالوعى الكونى الممتد، وهو الذى لا يسمح بالنيازك أن تتساقط، حتى لو حاول عقل صاحبها أن يفرض وصايته على كل ذلك.

وبعـــد

إن الدعوة المطروحة ليست دعوة للاعتراف بالجسد، وإنما هى دعوة أكثر لإعادة التعرف عليه من جديد، أولا بالتوقف عن نفيه وتهميشه، وثانيا بتعديل ما أمكن من سلوكنا العادى لعلنا نستعيد التعود على الإنصات للغته، واحترام حواره مع جسد آخر، ليس باعتباره ذنبا أو لذة، وإنما باعتبار ذلك أقدر على التعبير الأعمق والأبقى والأكثر إبداعا، أى إيمانا.

* تنشر بإذن من المؤلـف (روز اليوسف، سبتمبر 2005)